رجل المختبرات

جيريمى كليفت يجرى حوارا مع فيرنون ل . سميث الفائز بجائزة نوبل

ليس فيرنون سميث من الأشخاص الساعين للتكريم فى الاحتفالات. بل إنه فى الواقع، كان عليه أن يتدرب على كيفية الانحناء قبل استلامه لجائزة نوبل من ملك السويد. ويقول سميث «لقد كان الرعب يسيطر عليهم خشية أن ارتدى حذاء رعاة البقر»، بينما كانت أصابعه تزدان بمصوغات فضية مرصعة حصل عليها من قبيلة هوبى الهندية «. لقد كان هناك رهان فى كافة أنحاء استكهولم على ذلك .... الحقيقة أننى لم أصدق .... ولكن من الذى يهتم ؟»

وبالنسبة لرجل بنى شهرته على أساس تجارب مقارنة لاختبار نظريات السوق فى المختبرات، فإن فيرنون سميث يتسم بشىء من المرح وخفة الروح. ويتدلى شعره الرمادى على كتفه فى شكل ذيل حصان وهو يقلد بسرعة أمام زواره كيف انحنى أمام الملك ـ وكانت انحناءة رسمية جامدة، مع إمالة الرأس بصورة طفيفة إلى الأمام. ويقول وهو يضحك «بالنسبة للأمريكيين، فإن هذا يتطلب شيئا من التدريب».

وحتى وقت قريب، كانت الفكرة الشائعة هى أن الاقتصاد علم غير تجريبى وعليه أن يعتمد على ملاحظة الأمور الاقتصادية فى عالم الواقع أكثر من اعتماده على التجارب المقارنة فى المختبرات والتى غالبا ما تستخدم فى علوم الطبيعة». وقد كتب بول أ. صمويلسون مؤلف الكتاب الكلاسيكى «القضايا الاقتصادية». نظرا لتعقد السلوك الإنسانى والاجتماعى، فإننا لا يمكن أن نأمل بلوغ دقة علوم الطبيعة، ولا يمكن أن نقوم بالتجارب المقارنة التى يقوم بها الكيميائى أو عالم الأحياء. نحن مثل الفلكى يجب أن نرضى إلى حد كبير بالملاحظة».

وقام سميث بتغيير كل هذا، عن طريق ريادته فى استخدام التجارب فى نطاق البيئة المقارنة للمختبر لاختبار النظريات الاقتصادية، وبخاصة أسباب عمل الأسواق بالطريقة التى تعمل بها. وتتسم الدروس المستفادة مما أصبح يعرف باسم الاقتصاد التجريبى بقيمتها لكل من الباحثين وواضعى السياسات ويمكن تطبيقها على نطاق واسع فى مجالات مثل نظرية وسلوك السوق المالية، واقتصاديات الموارد الطبيعية، وتحرير صناعات مثل الطاقة الكهربية والمياه.

ويبلغ سميث ٧٦ عاما، وهو يعمل أستاذا للاقتصاد والقانون فى جامعة جورج ماسون فى ولاية فرجينيا، وقد فاز بجائزة نوبل فى الاقتصاد مناصفة مع دانيل كاهنمان، استاذ علم النفس والشؤون العامة فى جامعة برنستون، الذى ساعد البحث المنفصل الذى قام به عن اتخاذ القرارات الإنسانية، فى تطوير مجال الاقتصاديات السلوكية، وقد أعلنت الأكاديمية الملكية السويدية للعلوم، التى قامت بمنح الجائزة، التى بلغت قيمتها ١,٠٧ مليون دولار، فى العلوم الاقتصادية، « أن كلا الرجلين قد غيرا اتجاه علم الاقتصاد.

ولم يكن الفائزان قد التقيا وجها لوجه قبل ذلك، نظرا لأن سميث فى إحدى مقالاته بمجلة الاقتصاد السياسى عام ١٩٩١، كان قد اتهم كاهنمان وزميله فى البحث الفقيد آموس تفرسكى لزمن طويل بأنهما «يتجاهلان التفسيرات والأدلة العكسية لفترات طويلة من الزمن» فى العمل الذى يتم فيه فحص واختبار مدى عقلانية الأسواق. إلا أنه مهما كانت الخلافات بين الرجلين، فإنهما لم يظهرا منها شيئا عندما تسلما جائزتهما فى ستوكهولم عندما قام سميث بتحية كاهنمان لعبقريته فى دراسة وفهم القرار الإنسانى وعملية المعرفة المرتبطة به مما يظهر أن منطق الاختيار وأيكولوجية الاختيار يمكن أن يكونا مختلفين.

نصير متحمس

يتسم سميث بالحماسة فى الالتزام بالاختبارات المعملية فى الاقتصاد، وهو المجال الذى مازال منغمسا فيه بدرجة كبيرة، ليس فقط فى مجرد البحث، ولكن أيضا فى تطوير برامج وورش عمل لطلبة المدارس الثانوية ويقول « لا يمكنك أن تتصور مدى نجاح ذلك » وهو يجلس فى مكتبه « بالمركز متعدد التخصصات للعلوم الاقتصادية» Interdisciplinary center For Economic Sciences (ICES) وهو مركز للبحوث ساعد فى إنشائه فى عام ٢٠٠١، وسيقدم له أيضا نصيبه الذى حصل عليه فى جائزة نوبل.

وقد كانت التجارب المبدئية فى هذا المجال موجهة نحو اختبار ما أطلقت عليه الأكاديمية السويدية أنه ربما كان أكثر النتائج الأساسية فى النظرية الاقتصادية: وهى أنه فى ظل المنافسة الكاملة، يحدد سعر السوق توازنا بين العرض والطلب عند المستوى الذى يولى فيه المشترى الحدى قيمة عالية للسلعة مثل تلك التى يوليها لها البائع الحدى. وفى التجارب المعملية الأولى التى قام بها سميث كان الخاضعون للتجربة تحدد لهم أدوار، بشكل عشوائى، كبائعين أو كمشترين، مع إخبار كل منهم على انفراد بأقل سعر يمكنهم أن يبيعوا به، أو أعلى سعر يمكنهم أن يشتروا به. وفى ضوء توزيع أسعار الاحتياطى، تمكن سميث من تحديد سعر التوازن النظرى ـ السعر المقبول لأكبر عدد من البائعين والمشترين. ومنذ وقت مبكر يرجع إلى عام ١٩٦٢، عندما قام بنشر نتائج تجاربه الأولى، وجد سميث، لدهشته الكبيرة أن الأسعار التى حصل عليها فى المعمل كانت قريبة جدا من قيمها النظرية، وحتى على الرغم من افتقار الأشخاص الخاضعين للتجارب إلى المعلومات الضرورية لحساب سعر التوازن. وقد برهنت تجارب سميث على أن وجود أعداد كبيرة من القوى الفاعلة الاقتصادية ذات المعرفة الكاملة ليس شرطا مسبقا لكفاءة الأسوق ـ وهو ما يخالف الفكر الاقتصادى التقليدى.

كما استهل سميث استخدام نوع من تجربة النفق الهوائى فى المعمل، حيث يمكن مقدما اختبار الآليات المقترحة لإجراء عمليات مزاد من أجل الخصخصة، والتوريدات العامة. ولما كانت تلك الآليات معقدة غالبا، ومن الصعب تقييم أدائها على أساس الاعتبارات النظرية فقط، فإن الطريقة

كيف بزغ الاقتصاد التجريبى من الظل

التجريبية تصبح مفيدة بشكل خاص. وفى تجارب مماثلة، قام سميث بدراسة آليات مختلفة لتخصيص حقوق الهبوط بالمطارات باستخدام نظام الأسواق المعززة بالكمبيوتر. كما قام أيضا بتقييم مختلف وسائل تنظيم أسواق الطاقة فى أستراليا ونيوزيلندا، حيث أدت النتائج إلى التأثير الفعلى فى تصميم السوق.

ويقول سميث أن الاختبار المعملى له استخداماته لتقييم الخيارات السياسية فى الدول النامية، خلال الأزمات مثلا. «ووجهة نظرى هى أن هناك قدرا هائلا من الأشياء التى يمكن أن تقوم بها فى المعمل لدراسة أمور مثل التغيرات فى النظم النقدية. ويمكننا فى المعامل أن نصل إلى فهم يكفل لنا نفاذ البصيرة فى ذلك المجال. ونحن لا ننظر إلى الاقتصاديات التجريبية أو المعملية باعتبارها شيئا يدفع على البحث فى المعمل فقط».

والتجارب المعملية لا توفر لواضعى السياسات إجابات قاطعة للمسائل الاقتصادية الرئيسية ولكنها تقدم طريقة سريعة ومردودة التكاليف لتحديد السوق، وعيوب السياسة، قبل أن تصبح الأفكار والنظريات مبادرات للسياسة العامة. كما يقول سيمث، فإنه على سبيل المثال، عندما تم تحرير سوق الطاقة فى كاليفورنيا، لم تكن شركة إنرون، هى السبب فى إثارة المشاكل، بقدر ما كان التصميم المعيب للسوق التى تم تحريرها.

ولما كان سميث قد شب فى رعاية أم تعتنق الأفكار الاشتراكية، فإنه كان فى بداياته يتشكك فى كفاءة الأسواق، «إلا أن الخاضعين للتجارب التى قمت بها كشفوا لى عن خطأ تفكيرى» وفقا لما كتبه عام ١٩٩٤ فى مقال بصحيفة *آفاق اقتصادية*. وقد ولد سميث فى ويتشيتا، ولاية كانساس. وحصل على درجة البكالوريوس فى الهندسة الكهربائية من معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا فى عام ١٩٤٩، إلا أنه سريعا ما انجذب إلى الاقتصاد. وجعله تأهيله العلمى غير راض عن الطريقة التى يجمع بها الاقتصاديون بياناتهم ويقول «إن العلوم أكثر قربا من الملاحظة الدقيقة من الاقتصاد وأن البيانات التى يستخدمها الاقتصاديون لا يجرى جمعها عادة لأغراض علمية، بينما فى حالة العلوم، يقوم العلماء بجمع معظم

ما هو الاقتصاد التجريبى ؟

الاقتصاد التجريبى يسمح بدراسة مقارنة للأسواق، وقواعد التبادل وسلوك المشاركين فيها. وهو يهيئ لواضعى السياسات القيام بعمل «اختبار على المنضدة» لخيارات السياسة المتنافسة عن طريق مقارنة النتائج المحتملة لمجموعات القواعد البديلة. ويتم إجراء معظم التجارب فى أطر المعامل، حيث يلاحظ الباحثون مجموعات من الناس يقومون بالبيع والشراء وتقديم العروض فى مباريات لتمثل بيئة الاقتصاد الحقيقى. ويقوم المشاركون بعمليات تبادل مستخدمين نقودا حقيقية. وغالبا ما يمكنهم الاحتفاظ بأرباحهم. ويتعلم الباحثون كيف ولماذا يكون رد فعل الأسواق تجاه التغيرات فى اللوائح وقواعد التجارة عن طريق ملاحظة كيفية رد فعل الذين يدرس سلوكهم فى أثناء المراحل المختلفة للتجارة.

الملاحظات بأنفسهم. وعندما بدأت لم أكن أقدر كل هذه الأشياء حق قدرها، وهذا ما جذبنى فى نهاية الأمر إلى إجراء التجارب - ألا وهو عدم الرضا عن حالة الملاحظة فى الاقتصاد.

وقد حصل سميث على دكتوراه الفلسفة فى الاقتصاد من جامعة هارفارد عام ١٩٥٥ وقام بالتدريس فى عدد من جامعات الولايات المتحدة بما فى ذلك جامعة بيورديو وأريزونا حيث اقام معمله التجريبى. وقام كثير من الجامعات منذ ذلك الحين بإنشاء معاملها الخاصة، وأدى عمله إلى ذلك النمو السريع، فى خلال العقدين الأخيرين، للطرق التجريبية فى الاقتصاد. وفى معمله بالمركز متعدد التخصصات للعلوم الاقتصادية يقوم هو، ومعاونوه من الباحثين بقيادة معاون سميث الأستاذ كيفين مكابى. بتقسيم العمل إلى الاقتصاد السلوكى، والاقتصاد العصبى وهو يربط بين علم الاقتصاد وعلم النفس وعلم الأحياء والفلسفة. وهناك أرضية طبيعية للقاء بين الاقتصاد وعلم الأعصاب تتمثل فى دراسة التبادل الشخصى، حيث ينتج التعاون مكاسب من التبادل، إلا أن هذه المكاسب قد تقوضها المصالح الذاتية الانتهازية.

الاقتصاديون هم الاستثناء

يأتى المشاركون فى تجارب سميث من مجالات كثيرة، وهم يضمون بينهم مديرى الشركات، والتجار بالأسواق، وطلبة الدراسات العليا بالجامعات، واقتصاديين مدربين. ويقول جوزيف ستيجليز، الفائز المشارك فى جائزة نوبل عام ٢٠٠١ « إن من بين النتائج المثيرة للاهتمام التى تم التوصل إليها من الاقتصاد التجريبى تلك التى تتعلق بالأثرة والأنانية. ويبدو (على الأقل فى المواقف التجريبية) أن الأشخاص الخاضعين للتجربة لا يتصفون بالأنانية مثلما افترض الاقتصاديون، فيما عدا مجموعة واحدة. وهم الاقتصاديون أنفسهم ».

ويقول سميث الذى يعتبر نفسه الآن من أنصار مذهب الحرية « إننا نجد أن الناس أكثر ثقة، وأنهم يحققون نتائج أكثر تعاونا مما تتنبأ به نظرية المباراة، وهم جميعا يحققون بالفعل مكاسب أكثر عندما يقومون بذلك ».

وإذا كانت طرق سميث مفيدة بهذه الدرجة لواضعى السياسات، فما هو السبب وراء المقاومة التى لقيها فى الماضى من جانب بعض الاقتصاديين لأساليبه الفنية ؟ يقول سميث « إننى أظن أن ذلك يرجع اساسا إلى أن الاقتصاديين لم يتدربوا على هذه الطرق » وأن هناك استثمارا كبيرا، سواء بالنسبة لى أم للأشخاص الذين ساعدونى نظرا لأننا لم نكن مدربين أيضا على التجارب المعملية. والآن فقد اصبح من السهل، بالطبع، الحصول على التدريب، إلا أن هناك كافة أنواع الأسباب العملية التى تجعلك لا ترغب فى أن تكون أنت الأول. وهو نفس ما حدث بالنسبة للاقتصاد القياسى. فقد تطلب الأمر زمنا طويلا قبل أن يصبح الاقتصاد القياسى مقبولا. وأظن أن الاقتصاد التجريبى، الذى يبتعد بدرجة أكبر عن الأساليب والطرق التقليدية سيستغرق وقتا أطول كثيرا ».

وقد أعرب منتقدو الاقتصاد التجريبى عن قلقهم من أن الأشخاص الذين يوضعون فى المواقف التجريبية يأتون إلى التجارب بنماذج فكرية مقررة خارج التجارب ومن ثم فإن التجارب ليست بهذه الدرجة من النقاء كما أن الاستنتاجات ليست قاطعة بنفس الدرجة التى هى عليها فى العلوم الطبيعية. ويقول فرانك شوستاك من معهد مايسيس إن الاقتصاد التجريبى، البعيد عن أن يكون موجة المستقبل، يعطل الفهم باستخدامه البشر كحيوانات المعامل.

إلا أن كثيرا من العاملين بالاقتصاد يرحبون بتحدى النموذج العقلانى القديم للتيار الرئيسى لعلم الاقتصاد، والذى يفترض أن كافة المشاركين لديهم نفس المعلومات وأنهم يتصرفون بشكل عقلانى كامل، وأن الأسواق ذات كفاءة كاملة، وأن البطالة غير موجودة. ويقول سميث « أما ما لا نعرفه بالفعل والذى لم نجهد أنفسنا لفهمه، هو كيف أن الأشخاص الذين لا يعرفون ما نعرفه نحن كاقتصاديين يمكنهم الوصول إلى التوازنات، التى نقوم بوصفها بطرق ليس لديهم أدنى فكرة ضبابية عن كيفية استخدامها. وهذا هو السر الكبير فى الاقتصاد. ومن الصعب العثور على شخص يعمل على استجلائه لأنهم يعتقدون فى تلك النماذج الاستدلالية ». ويضيف « إن الاقتصاد التجريبى لا يمكن أن يحقق أى شىء قريبا مما يحتمل له بلوغه حتى يغير الطريقة التى يفكر بها الاقتصاديون والمنظرون فى مشاكلهم. ■

جيريمى كليفت من هيئة تحرير مجلة التمويل والتنمية.

فيرنون سميث يتحدث عن ...

العولمة

يجب على البلدان أن تصبح قادرة فعلا على إدارة اقتصاداتها بطريقة أفضل كثيرا، وإلا لحق بها الضرر، ولم تحصل على فوائد العولمة. إن الحصول على المنافع هو علم، إذا ما كانوا يريدون معرفة هذا. كما أن قيام صندوق النقد الدولى بالانقاذ، حتى مع اتباع القواعد وكل شىء ليس هو الطريق لحل مشاكلها.

المساعدات الأجنبية

كان تاريخ المساعدات الأجنبية تاريخا مشؤوما إلى حد ما، بمعنى أنه عبارة عن تحويلات من بلد لآخر، وفى كثير من البلدان غير النامية ذات الحكومات الفاسدة والديكتاتورية، فإن هذه المساعدات تزيد من قوة هذه الحكومات. والطريقة التى يمكن بها تحقيق التنمية هى قيام المستثمرين بالاستثمار فى تلك البلدان وأن يروا كيف يتم استخدام أموالهم. وأظن أن السياسة العامة ينبغى أن توجه إلى إزالة العقبات المصطنعة التى تعوق ذلك.

الأزمة التالية

نعتقد أن الأزمة التالية فى كاليفورنيا ستكون فى المياه. ففى كاليفورنيا تعاقبت دورات من توافر المياه والجفاف. ونحن نحتاج إلى طرق أفضل لتخصيص المياه فى جميع أنحاء الغرب، بل وحتى هنا فى الساحل الشرقى (للولايات المتحدة) وقد بدأت نوعية المياه تصبح مشكلة.

البورصة (سوق الأوراق المالية)

أنا لا أعلم متى ستبلغ هذه السوق القاع، ولكننى أعلم أنها الآن أكثر انخفاضا بدرجة كبيرة عما كانت عليه منذ ثلاث سنوات مضت، ومن ثم فإننى اشعر بالتفاؤل. وأظن أن هذه هى فرصة الشراء، ولكننى قد أكون مخطئا ولذا لا تتبعوا نصيحتى.

عند تسلم جائزة نوبل

لقد كان ذلك شيئا مسليا للغاية. إنه فى الواقع احتفال لكرامة الجنس البشرى، بالإنجازات الفكرية باعتبارها جزءا مهما من تلك الكرامة.

المراجع:

Vernon L. Smith, 1991, "Rational Choice: The Contrast Between Economics and Psychology," Journal of Political Economy, *Vol. 99 (August), pp 877–97.*

———,*1994, "Economics in the Laboratory,"* Journal of Economic Perspectives, *Vol. 8 (Winter), pp 113–31*